بريد الجمعة
أثر المعارف الرقمية

بريد الجمعة
الجُمعة ٢٣ يناير ١٩٩٨

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

البركان الخامد!

يعلم الله أن ما سوف افصح عنه فى هذه الرسالة هو سر قد ضاق به صدرى ووجدت فى الكتابة إليك عنه بعض ما يخفف عنى عبئه.. فانا شاب عمرى ٣٢ عاماً، اعمل محاسباً بإحدى الشركات الكبرى.

ومنذ عشرة أعوام كانت تجمعنى قصة حب شفافة بفتاة كانت هى كل حياتى، وأول حب حقيقى عشته خلال عمرى كله، وكنت فى ذلك الوقت شاباً فى الثانية والعشرين من العمر صغر اليدين إلا من الأحلام الجميلة، فقررت أن أخطبها وتجمعنى هى على ذلك. ولم تكن إمكاناتى المالية تسمح لى وقتها سوى بشراء دبلتين فاشتريتهما وتوجهت لمقابلة أبيها على أمل أن أخطب فتاتى بهاتين الدبلتين ثم أبدأ رحلة الكفاح لتوفير متطلبات الزواج. واستقبلنى الأب استقبالاً فاتراً جافاً، واعتذر عن عدم الموافقة على خطبتى لابنته حرصاً على مصلحتها، رافضاً أن يسلمها لشاب لا يملك حتى توفير ثمن الشبكة، وخرجت من عنده مقهوراً حزيناً، وضاعف من احزانى أن تقدم إليها فى نفس الوقت العريس الجاهز القادر على توفير كل متطلبات الزواج بغير انتظار عدة سنوات اخرى، ووجدت أسرة فتاتى بهذا العريس والمت عليها فى قبوله لكيلا يفوتها قطار الزواج، وقبلت فتاتى مرغمة الزواج منه، بعد أن كنا نظن أنا وهى - كما يفعل كل الشباب فى هذه المرحلة من العمر - أن كلا منا قد خلق للآخر وحده وإنه لن يرتبط بأحد فى الدنيا سواه ولو زلزلت الأرض زلزالها، وتزوجت فتاتى ممن اختارته لها الأقدار، وانطويت أنا على احزانى وإحساسى بالمرارة، والهوان والعجز.

وامتدت خلال هذه الفترة من حياتى بأن الأقدار قد تحكم على الإنسان بألا يتزوج من يحب، وبألا يحب من سوف يتزوجها فى المستقبل.

ومضت الأيام فى طريقها المعهود وانقطعت كل صلة لى بهذه الفتاة، وأقنعت نفسى بصعوبة بعدم التفكير فيها مرة أخرى.

وخلال ذلك سعى أحد اقاربى فى تعيينى بشركة استثمارية بمرتب كبير، عن طريق صديق له يعمل مديراً لهذه الشركة.. ورحب المدير الصديق بعملى معه وانتظمت بعملى رحباتى الجديد وعوضنى عقود من معيدى الذى تبنانى وعلمنى أسرار العمر وأكسبنى من خبرته بالعمل والحياة، الكثير.. لقد قرر لى الذى سعى فى تعيينى بشركة أبى أن مصلحة [illegible] هذا إهانة وجديدة ممزوجة بالخلاف، وجعلنى أرفض العمل بها كثيراً، وحمانى عمى الشقيق المخلص، ففعلت بعد أن رأيتها وعجبت منه [illegible] والدها الذى أصبح بعدئذ يعاملنى معاملة جيدة وزوجته زواجاً تقليدياً وعشت معها فى مسكن بسيط الأثر الوحيد الذى لم يتبق سواها واعتقد قلبى على حبى القديم رغم مرور طيفه وتكريانه بخيالى فى معظم الأحيان، وعشت مع زوجتى هذه حياة عادية هادئة، وانجبت منها طفلى الأول. والحياة تمضى بنا على نفس الوتيرة الهادئة، ثم أنجبت طفلى الثانى أيضاً. والحياة مازالت على نفس هدوئها، ثم بدأ السأم يتسلل الى نفسى من هذه الحياة الروتينية فى البيت وفى العمل فأشارت على زوجتى من باب تجديد الحياة وإبعاد الاهتمامات الجديدة، أن أحضر للماجستير فأعجبت برأيها ومشورتها وتقدمت الى الكلية والتحقت بالدراسات العليا وبدأت الإعداد للماجستير، وساعدتنى زوجتى على دراستى الجديدة بتوفير الهدوء اللازم لى للدراسة وتلبية كل ما أحتاج اليه بشأنها!

وبدأت أهيئ نفسى لإنهاء المرحلة الأخيرة منها فخرجت ذات يوم الى محلات وسط المدينة لشراء قميصين جديدين لى، ودخلت أحد المحلات فإذا بسيدة من رواد المحل تنظر الى باهتمام شديد وهى تبتسم ابتسامة من يعرفنى ويرحب بى، فدققت النظر فيها للحظات فإذا بها فتاتى القديمة التى لم أرها منذ تسع سنوات كاملة، والتى عرفتنى للوهلة الأولى بالرغم من عدم تعرفى عليها فى البداية والتقينا من جديد بعد كل هذه السنوات، وعرفت منها أنها لم توفق فى زواجها وأنها قد طلقت من زوجها بعد زواج دام خمس سنوات فقط بسبب اختلاف رؤية كل منهما للحياة وأرائه، فزوجها يقيم كل شئ بالمال وحده، وهى تقيم الأشياء بما هو اكثر من المال من اعتبارات اخرى، فتعمقت الخلافات بينهما وتم الانفصال بهدوء منذ أربع سنوات!

وسألتنى فتاتى القديمة عما فعلته بى الأيام فحكيت لها عن حياتى الهادئة الرتيبة مع زوجتى وقلت لها انه لولا أطفالى وما أشعر به من عرفان لوالد زوجتى الذى وفر لى العمل وساعدنى فى العمل وفى الحياة بخبرته وعطائه النفسى لى، لما واصلت هذه الحياة الزوجية الرتيبة للنهاية. وشعر كل منا بأن الحياة قد ظلمته حين فرقت بينه وبين من كان يتمنى الارتباط به وحده، وطلبت منها أن تلتقى مرة أخرى فاعتذرت فى البداية بأن وضعها كمطلقة لن يسمح لها بذلك تفادياً للشبهات وسوء السمعة. لكننى أصررت على اللقاء، وقد تفجر فى اعماقى فجأة بركان الحب الخامد فيه على مدى تسع سنوات، واستجابت لرغبتى والحاحى فالتقينا مرة ثانية ثم تكررت اللقاءات بيننا، وقد عادت الى عروقى دماء الحب والحيوية، والإقبال على الحياة، ولاحظت زوجتى ازدياد انشغالى عنها ولفتت نظرى بهدوء الى ذلك فاعتذرت لها بانشغالى للإعداد للماجستير فى رحلتها الأخيرة.

ووجدت نفسى بعد فترة قصيرة من استعادة الحب واللقاءات المتكررة مع فتاتى القديمة أطلب منها الزواج على أن يظل زواجنا سراً بينى وبينها ويمهر ان تعلم به زوجتى بالطبع وصهرى مراعاة لظروفى العائلية وظروف زوجتى الطيبة التى لم تسئ الى فى شئ ولم تقصر فى حق من حقوقى، وايضا مراعاة لحرجى مع والدها الذى يعتبرنى منه بمثابة الابن لكن فى هذه المرة رفضت فتاتى الزواج منى لكيلا تكون سبباً فى تدمير أسرة كانت تعيش حياتها فى أمان وتوفق لقاءاتى بها منذ عدة شهور، وانطلقت مرة أخرى السعل بينى وبينها وفى فترة النقطة الثانية هذه وجدتنى أخلو الى نفسى فأجدنى فى بعض الأحيان راغباً فى البحث عنها من جديد واستئناف القصة المبتورة بيننا مهما ترتب على ذلك من مشاكل وقلاقل فى حياتى الخاصة.. واجدنى فى أحيان أخرى أشعر بتأنيب الضمير وتعذيبه لى لتفكيرى فى إشقاء زوجتى الطيبة المحبة وانعاس أطفالى واسمع داخلى هاتفاً يقول لى: هل تقابل حب زوجتك لك واخلاصها وحنانها وعطائها بالغدر والخيانة!.. هل يستمتع منك هذان الطفلان الجميلان أن تدمر سعادتهما وأمانيهما بالجرى وراء الأحلام القديمة؟ ومحاولة اعادتها الى الحياة من جديد؟ هل تقابل جميل والد زوجتك الذى هيأ لك العمل المناسب، وأعطاك الخبرة ورعاك فى العمل والحياة، ويسر لك الزواج من ابنته الوحيدة بالغدر بهذه الابنة وإيلامه هو نفسه وهو الأب الذى لا مم له فى الحياة إلا سعادة ابنته وسعادتك وسعادة احفاده منك!

أن ضميرى يعذبنى كلما نظرت الى زوجتى الطيبة الهادئة الوديعة التى تحيينى وترعانى بإخلاص وكلما نظرت ايضا الى أطفالى والى صهرى، وانى استطيع اذا اردت أن أجد الطريق الى فتاتى القديمة التى تلهفت منى الآن لكنى لا افعل ذلك انقاذا لهذه الأسرة الصغيرة من الغلاظل والشقاء، فبماذا تنصحنى أن افعل؟

أننى أطلب منك - قبل ان تشير على بالرأى - ان تضع نفسك انت اولا فى نفس موقفى وقد تكون قد مررت بتجربة مشابهة فى حياتك كأى انسان آخر فى الحياة ثم تشير على من هذا الموقف بما ترى فيه الخير والحق والعدل والسعادة لى ولكل الأطراف... فماذا تقول لى يا سيدى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا يكفى يا صديقى ان اضع نفسى فى موقفك، لكى اتوصل الى الرأى الذى اشير به عليك وانا مستريح الضمير الى انه يحقق الخير والحق والعدل والسعادة لك ولكل اطراف هذه القصة المتشابكة الخيوط، وانما ينبغى لى ايضا ان اضع نفسى كذلك فى موقف صهرك وزوجتك واطفالك، وان اتمثل ما سوف ينعكس على حياتهم من خير او شر اذا انا اخبرتك بما رايته محققا للخير والسعادة لك وانا اتمثل موقفك وحدك من هذه القصة..

فالحق اننا جميعا نحن البشر قد نرى الحق والعدل والخير فيما يحقق لنا السعادة وحدنا بغض النظر عما يمكن ان تجنيه هذه السعادة التى طلبناها وسعينا اليها على حياة الآخرين من تعاسة وظلم وشقاء..

والمبدأ الأخلاقى العظيم الذى ارساه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، حين دعا المؤمن لان يحب لأخيه ما يحب لنفسه، كفيل لو اجتهد البشر لاتباعه بقدر الإمكان، بتضييق مساحة الشقاء والتعاسة والشر والغدر والخديعة والجحود والنكران، فى الحياة الى حد كبير.

كما ان الخير عند فيلسوف عظيم مثل كانط هو مطابقة الإرادة للقانون الأخلاقى، والسعى الى السعادة الشخصية باى وسيلة من الوسائل انما يتعارض فى واقع الأمر مع هذا القانون الأخلاقى لانه قد يهدف فى بعض الأحيان الى اشباع حاجاتنا بما يتعارض مع سعادة الآخرين وحقوقهم علينا، ولهذا فإن الفيلسوف الألمانى يرى انه لا ينبغى لنا ان نسعى لأن نكون سعداء بأية وسيلة متاحة لنا، وانما ينبغى علينا ان نسعى لأن نكون جديرين بالسعادة، وذلك عن طريق تنظيم حياتنا على أسس اخلاقية سليمة ترشحنا لأن نكون اهلاً للسعادة الموجودة سواء تلناها فى الأرض ام لم نتلها.. والأرجح كما يقول كانط هو فى اننا سوف نتالها ذات يوم لأننا ان لم نذل السعادة الحسية التى رجوناها لأنفسنا فسوف ننال ما هو أعظم منها وهو سعادة الضمير وراحته واطمئنانه الى انه لم يظلم غيره.. ولم يعش حياة أنانية انعكست بالتعاسة والشقاء على الآخرين.

ولقد جاء رجل الى احد القساوسة القدامى يطلب بركته ونصيحته فنصحه بان ينظر دائما من خلال الزجاج وليس فى المرآة، لأنه اذا نظر من خلال الزجاج فلسوف يرى الآخرين ويضع اعتباراتهم فى حسبانه، اما اذا نظر الى المرآة فلن يرى سوى نفسه ورغائبها، والزجاج واحد فى الحالتين لكن طبيعة الفضة على زجاج المرآة قد حجبت عن الناظر اليها كل الأشياء سوى شخصه.. وطبيعة الفضة هنا هى رغبات الإنسان وميوله وأهواؤه، والنظر الى الزجاج الشفاف لا يعنى ان يلد الإنسان دائما كل رغباته واهواءه وميوله، وانما يعنى فقط ان يرى الآخرين وهو منشغل بالتفكير فى هذه الرغبات والأهواء وان يضعهم فى اعتباره، وانت يا صديقى تطلب منى ان اضع نفسى فى موقفك وحدك قبل ان اشير عليك بالرأى فيما تواجهه من اضطراب اثارة ظهور فتاتك القديمة فى حياتك مرة اخرى بعد ان تزوجت وانجبت طفلين ورضيت عن حياتك، فهبنى فعلت ذلك فلسوف اقول لك فى كل الاحوال: اننى قد استسلم مثلك ومثل كل البشر لمثل هذه الأحلام الجميلة التى قد تراود اى إنسان فى بعض الأحيان وتعده بتغيير سحرى يحول كل شئ حوله الى نغم جميل يشدو بالحان الهناء والأمان والسعادة المثلى التى تهفو اليها دائما نفس كل انسان لكن هذه الأحلام الجميلة لا تعدو ان تكون فى النهاية مجرد طيف يعبر بالخيال ويمثل استراحة خاطفة للروح والنفس من عناء الحياة والعمل والعلاقات الإنسانية والاجتماعية والعائلية وكل ما يشكو منه الإنسان منذ وجد على الأرض، ولابد للمرء بعد ان يستفيق لمثل هذه اللحظات السحرية الخاطفة من أن يهبط مرة اخرى من دنيا الأطياف الوردية الى ارض الواقع الفعلى الذى يعيشه كل انسان ويواصل حياته والتزاماته تجاه الحياة وتجاه الآخرين، وفى مثل ظروفك هذه وبالرغم من تقديرى لما تحس به تجاه فتاتك القديمة فإنى أقول لك بغير تردد انه ليس من النبل ان ترضى بأن يدفع غيرك ثمن اخطاء الحياة فى حقك، ان كانت ثمة اخطاء ولم يكن ما ارادته لنا الأقدار هو خير وابقى لنا مما اردناه نحن غالبا لأنفسنا، خلال انشغالنا عما وهبنا الله سبحانه وتعالى بما حرمنا منه فى بعض مراحل العمر، وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها يا صديقى.. فلا مفر امامك من ان تصبر على ثورة البركان الذى كان خامدا طوال تسع سنوات حتى استيقظ فجأة من سباته عقب ظهور فتاتك السابقة فى الأفق من جديد..

فلكل ثورة بركان عودة حتمية مرة اخرى الى الخمود والهدوء بعد ان يكون قد قذف بحممه وصخوره المصهورة والصلبة وغازاته المكتومة، وهناك من البراكين ما قد لا يعود للثوران مرة اخرى ولو بعد عشرات السنين.

ولا سبيل امامك غير ذلك، لأن كل حل آخر سواه سوف يعود على حياتك الشخصية والعملية والاجتماعية باوخم العواقب والبراكين الحقيقية، وليست المجازية، فالزواج السرى حتى لو رضيت به فتاتك القديمة لابد له من ان ينكشف ذات يوم، فيكون انكشافه كارثة عليك وعلى زوجتك وصهرك واطفالك من كل الجوانب، وهدمك لأسرتك لكى تتحرر من علاقتك بزوجتك وترتبط بفتاتك القديمة ويخلو لها وجهك كاملا كما قد يراودك او يراودها مثل هذا الخاطر فى بعض احلام اليقظة، فإنه اذا وقع وما احسب اخلاقياتك ومروءتك وتقديرك لمسئوليتك تجاه طفلك وزوجتك الطيبة المحبة يسمح لك بذلك فلسوف يكون ذلك هو ابشع ما ترد به دينك الإنسانى لمن احتضنك واعتبرك ابنا له ويسر لك العمل والزواج واستضافك فى بيته، وزوجك من ابنته فضلا عما سوف يمثله ذلك فى نفس الوقت من غدر خسيس بزوجة جميلة طيبة ومحبة توفر لك كل اسباب الراحة والهدوء فى حياتك وفضلا ايضا عما سوف ينعكس على طفليك من عناء وتمزق وضياع للأمان والاستقرار الى مالا نهاية..

وقديما قال الأديب العظيم مصطفى صادق الرافعى: ما الام الشجرة التى لو نطقت لشتمت من يسقيها!

وليس «الشتم» بالقول وحده يا صديقى فمن الفعل والسلوك ما هو ابلغ شتما وسبا وإيلاما للآخرين، فحاشاك ان تكون من هذا الصنف الجاحد من البشر الذى ينتكر لمن احبه واكرمه وأعطاه ورعاه، وحاشاك ايضا ان تكون ممن لا ينظرون من خلال الزجاج ولا يرون انفسهم الا فى المرآة المصقولة التى تعكس صورهم ورغباتهم واهواءهم وحدها.. والسلام!